الشعر وقضاياه النقدية عند قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) في كتابه(نقد الشعر)

يمثل قدامة بن جعفر مرحلة الفكر النقدي الجديد، كونه حاول الفصل بين النقد الكلاسيكي اللغوي والبلاغي والنحوي والعروضي السابق وبين النقد الجمالي، كما ظهرت شخصية المؤلف واضحة كما ظهر ره النقدي المتأثر بالفكر اليوناني بشكل واضح في كتابه(نقد الشعر)، واليه ينسب فضل وضع مصطلحات تخص الدراسة النقدية لم يسبق اليها احد ومنها مفردة النقد التي خصص استعمالها في ميدانها الادبي ، يقول: " والاسماء لا منازعة فيها اذ كانت علامات، فان قنع بما وضعته والا فليخترع لها كل من ابى ما وضعته منها ما احب"

وقد كان لمنهجيته الجمالية في النقد دور كبير في مساعدة النقاد على تحويل افكارهم الى اراء نقدية تحررت من قوالب اللغة والبلاغة واستقلت بالنقد بوصفه علما مستقلا.

فقد أكد على ضرورة دراسة الشعر بعروضه مستقلا عن دراسته بشروحه ومعانيه، لكنه يميز النقد بوصفه علما يميز جيد الشعر عن رديئه، ولا يعترف على ما يبدو بجميع المحاولات السابقة للجاحظ وابن قتيبة في تقييد دراسة الشعر ونقده بقضايا لا يرى انها مناسبه للحكم عليه، بل انه لا يعد العلم بالعروض علما ضروريا لقول الشعر ، باعتبار ان الشعر كما كان عند العرب في الجاهلية ولا حاجة للشعراء لمعرفة دقائق هذا العلم، اي انه يؤكد على الموهبة والسليقة والطبع بوصفها اشتراطات للشاعرية، ويرى د. احسان عباس ان قدامة لم يعرف شيئا عن كتاب مهم للناشيء اسمه(نقد الشعر) ولا كتاب عيار الشعر لابن طباطبا ، لكن يحسب له انه جعل النقد علما كما ذكرنا.

اما موضوع حد الشعر عنده فعلى الرغم من انه عرفه بالمألوف من الاركان مضيفا اليه ركن المعنى، لكنه حين اكد على المعنى اخرج من الشعر كل ما ليس من فنيته وجماليته حتى وإن تحقق شرط الوزن فيه، ويرى ان المعاني معرضة للشاعر وله ان يتكلم فيما احب وآثر ، وهو رأي يعيدنا الى مقولة الجاحظ القديمة(المعاني مطروحة في الطريق..) لكن قدامة طور الفكرة ولم يعبأ بموضوع اللفظ الذي يرى انه اشتراط معروف سيحدد لاحقا الامور الخاصة به، فقد جعل المعاني بمنزلة المادة والشعر صورتها التي تظهر بها ولا فرق بين المعاني الممدوحة والمذمومة، لكنه عد تعارض مواقف الشعراء من المعاني المذمومة التي تظهر بصورة مخالفة في اشهارهم دليلا على القدرة على الصناعة والمقدرة الشعرية، ومن الامور المهمة في المعنى انه فرق بين (المعنى الفاحش) و(فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه) ، وكأنه يرى ان المعاني محايدة يحدد السياق وجودة الصور الشعرية رداءتها و قيمتها.

وقد عمد الى دراسة مفردات تعريف الشعر كل على حدة وائتلافها فيما بينها، ولم يخرج عما قاله القدماء كل في موضعه، لكنه وضع اضافات اشتمل جزء منها على التطبيق بنصوص شعرية بأبيات متعددة في موضوع المعنى وأبيات مفردة في مواضع الوزن واللفظ ، انسجاما من طبيعة كل منها.

اشتراطات اللفظ:

يرى في باب نعت اللفظ ما رآه السابقون واللاحقون في شروط سلامة المفردة ، فيجب ان يكون اللفظ سمحا سهل مخارج الحروف عليه رونق الفصاحة خاليا من البشاعة، وهو الامر الذي يؤكد ايثاره لمفاهيم السلاسة والوضوح مع جمالية في رسم الصور ، واتسمت اختياراته في هذا الباب بالتنوع لكنها ايضا عكست افكاره بدقة محاولا ان يثبت هذه المفاهيم في اللفظ في نفوس الشعراء الناشئين لإكسابهم الخبرة والاطلاع.

اشتراطات الوزن:

اكتفى في باب نعت الوزن بابيات مفردة دالة على عروض النص ، وجعل معيار جودة الوزن سهولة العروض، وتكلم عن الترصيع بوصفه وجها جماليا لتحقيق التوازن الموسيقي، وربما كان اختصار حديثه عن الوزن بسبب رأيه السابق من ان العروض خارج عن دائرة النقد ولا حاجة للشعراء الى معرفة تفاصيله الدقيقة، واضاف الى هذا الباب اشتراطه بعدم المغالاة في التنغيم الموسيقي لئلا يخرج النص عن مدار العفوية والبساطة.

وكذلك الحال في حديثه عن نعت القافية التي اشترط فيها ان تكون عذبة الحرف سلسة المخرج ، مؤكدا على دور التصريع في خلق الايقاع واتزان اجزائه ، والتصريع كما هو معروف:(مشابهة قافية مقطع المصراع الاول مع قافية القصيدة)، وقد شدد على اهمية التصريع المناسب في اخراج الكلام من مذهب النثر بما للتسجيع احاصل فيه من اثر في تمييز الشعر عن النثر.

المعاني و الاغراض الشعرية:

يبقى موضوع الاغراض الشعرية الذي ادخله ضمن معاني الشعر اهم الجوانب التي وضحت فيها طروحاته النقدية المتعلقة بالمعنى، ، ويرى وجود معان جزئية متفرعة عن الاغراض الرئيسية ،وهي المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف ؟ ولا يقدم مبررا على ادراج التشبيه (كما سيفعل ابن رشيق في كتاب العمدة) ضمن الاغراض مع انه لون من الوان البديع الذي يظهر في كل الاغراض والمعاني ويمثل احد ادوات بناء الصور وتوليدها.

ويمثل المعنى عنده الجزء الاهم والمرتكز الذي قامت عليه رؤيته النقدية، فهو يشغل الجزء الاكبر من الكتاب، فحدد المعاني بستة انواع: كل منها ذو حدين جيد ورديء، لها سبع صفات هي الصفة ونقيضها، وهي الاغراض التي سيرد ذكرها.،وعالج موضوع الغلو في المعنى ولم يخصه بعصر دون آخر ويرى ان هناك مذهبان فيه:

- الغلو في المعنى
- تجاوز الحد الوسط فيما يقال منه

ويؤيد المذهب الاول كونه اختيار من يسميهم (اهل الفهم) بالشعر والشعراء قديما، كما ادخل مبدأ الكذب ودوره في جمالية المعنى التي تؤدي المبالغة فيه الى الغاية في الاجادة، باعتبار تجاوز الحدود في الصياغة وبناء المعاني .

وتناول اشتراطات كل ركن ، فمنها مثلا المعاني الشعرية وهي:

- صحة التقسيم: فاشترط فيها استيفاء الاقسام التي يأتي بها الشاعر مثل قول الشاعر:

فقال فريق القوم لا وفريقهم نعم وفريق قال ويحك لا ادري

- صحة المقابلة: اي يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بينها والمخالفة، فيأتي بالموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه، كقول الشاعر:

واذا حديث ساءني لم اكتئب واذا حديث سرني لم اسر

- صحة التفسير: فيذكر الشاعر احوال المعاني التي ذكرها في شعره على الا يزيد ولا ينقص، على نحو قول الفرزدق:

لقد جئتُ قوما لو لجأتُ اليهم طريدَ دمٍ أو حاملا ثقل مغرمِ

لألفيت فيها معطيا او مطاعنا وراءك شزرا بالوشيج المقوّمِ

- التتميم: وهو ذكر جميع الاحوال التي تتم بها صحة المعنى وجودته، كقول الشاعر:

رجال اذا لم يقبل الحق منهم ويعطوه عاذوا بالسيوف القواطع

- المبالغة: ان يصف الشاعر حالا من الاحوال لو وقف عليها لأجزأه ذلك الغرض الذي قصده، حتى يبلغ القصد فيما سبق، ومنه:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث سارا

- التكافؤ: ان يصف الشاعر شيئا بمعنيين متكافئين، اي متقابلين من جهة السلب والايجاب وغيرها، كقول الشاعر:

حلو الشمائل وهو مرّ باسل يحمي الذمار صبيحة الارهان

- الالتفات: ان يأخذ الشاعر معنى ويتركه لمعنى آخر فيعترضه الظن ان سائلا يسأله عن سببه فيعود الى المعنى الاول ، وهو باب دقيق المعاني، ومنه قول الشاعر:

أجملْ اذا ما كنت لابد مانعا وقد يمنع الشيء الفتى وهو مجمل

كما وضع لتراكب المفردات الاربعة نعوتا مختلفة، منها ما جاء في باب نعت ائتلاف اللفظ مع المعنى وهي المساواة ، الاشارة، الارداف، التمثيل، المطابق، المجانس وغيرها.

وتميزت معالجته لموضوع الاغراض الشعرية بالاتي:

١- باب المديح : جعل الاجادة فيه تحقق معيار الصدق ، وركز على الفضائل النفسية في تحقيق الاجادة في معاني المديح، بذكر الخصال الحميدة للرجل وهي عنده العقل والشجاعة والعدل والعفة، وهي مما يخالفه ايثاره لمبدأ الغلو في المعاني الذي يستكره عند اهل العلم بالشعر ان جاوز حد العقل ، وهذه الخصال الاربع هي حصيلة ما وجده من معاني المديح في التراث الشعري العربي وجعل غيرها ما يتفرع منها من المعاني الجزئية ، فجعل من معاني العقل : نقابة المعرفة، الحياء، البيان والسياسة ، الكفاية والصدع بالحجة والعلم والحلم وغيرها، كما ذكر من اقسام العفة : القناعة وقلة الشره وطهارة الازار وغيرها، ومن اقسام الشجاعة :تتفرع الحماية، الدفاع، الاخذ بالثأر، قتل الاقران ، النكاية في العدو والمهابة، وغيرها، وجعل من اقسام العدل: السماحة، التغابن وهو من انواع السماحة، الانظلام، التبرع بالنائل ، اجابة السائل وغيرها، ثم ركب من هذه الاقسام ستة اقسام فرعية يطول الحديث عنها كتركيب العقل مع الشجاعة، العقل مع السخاء، العقل والعفة.... الخ، وخص كل خصلة بقووم وحالة، فجعل معيار المقام حاكما في الاختيار، فيوصف القواد بالشجاعة ومديح الوزراء بالفكرة والروية والحنكة والسياسة، واللافت انه جعل واحدة من الفضائل المتقدمة وسطا بين طرفين مذمومين، فقد يفضي الافراط بالفضائل الى الميل نحو الطرف المذموم وهذا من باب الغلو في الشعر الذي يكرهه النقاد.
٢- نعت الهجاء: فجعل ما ذكره من الخصال في باب المديح مدخلا للهجاء بان تكون المعاني في الهجاء على عكس المديح، وذكر امثلة كثيرة قلب فيها وجوه الهجاء ومعانيه وذكر مواضع اضداد الخصال الحميدة التي تكلم عنها وعن تفريعاتها.
٣- نعت المراثي: يفهم الرثاء على انه مديح للميت لكن يشترط ذكر قرينة تؤكد ان المقصود به ميتا، لكنه فصل حدود المعنى فيهما، فمثلا يقال للحي كان متصفا بالجود وحين يرثى يقال: ذهب بموته الجود، ومن معانيه بكاء الافعال التي كان الميت يقوم بها، على نحو قول الخنساء ترثي صخرا:

فقد فقدتك حذفة فاستراحت فليت الخيل فارسها يراها

٤- نعت التشبيه: وهذا من الابواب التي لا يفهم سبب عدها غرضا ، ويقع بين شيئين يقع بينهما اشتراك في معان تعمهما . وجعل تفرعات المعاني معايير للجودة ويبدو جهده النقدي في هذا القسم في تحليله للأبيات ومعاني التشبيه واركانه .
٥- وكذلك ذكر نعوت الوصف والمعاني المركبة وجعل كثرة المعاني المركبة معيارا للجودة باعتبار صعوبة التركيب .

٦- النسيب: وابرز ما قام به في هذا الباب التمييز بين النسيب والغزل ، فقال: النسيب ذكر خلق النساء واخلاقهن، وتصرف احوال الهوى به معهن والغزل عند البعض يحمل معنى الصبوة الى النساء ونسب بهن لأجل ذلك،، ورأى ان الغزل هو التصابي والاستهتار بمودات النساء ، وعنده ان النسيب اوسع من الغزل، وهو الغرض ، فيدخل فيه معاني التشوق والتذكر لمعاهد الاحبة والروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة ، وفصل جانبا من معايب عاني الغزل ومنها استخدام الألفاظ الغليظة التي لا تتناسب مع المقام ، وكذلك الدعاء على الحبيب مما يخرج المعنى عن سياقه، واشترط ان تتسم الالفاظ بالعذوبة والسلاسة.

ويؤشر الباحثون ثلاثة مآخذ على منهج قدامة في تعامله مع الاغراض :

- اهتمامه بالشكل على حساب المعنى، بدليل كثرة المصطلحات البديعية التي تخدم الشكل والاسلوب.
- اقتصاره على شواهد قديمة في اغلب مواضع كلامه على الرغم من ان موقفه بين القديم والمحدث واضح ويركز على مفهوم المعنى واجادة الشعراء له في اي وقت.
- لم يقدم انموذجا متكاملا يطبق عليه منهجه الذي عرضه ، فعرض نصوصا امتازت بجمال الالفاظ واخرى تميزت بجودة المعنى ولم يقدم نصا شاملا لعناصر الاجادة كلها.

ونضيف الى ما سبق تركيزه الشديد على دقائق المعاني الامر الذي اوقعه في تناقض مع منهجه القائم على الاعجاب بالمبالغة ، ففي باب الاستحالة والتناقض مثلا يفكك البيت الشعر ويؤكد استحالة تحقق المعنى، رغم ان جمالية المعنى تكمن في ذلك الجزء تحديدا، على نحو ما فعل مع قول الشنفرى:

فدقت وجلت واسبكرت واكملت فلو جن انسان من الحسن جنت

فيرى انها دقت من جهة وجلت من جهة اخرى ولو كان الشاعر اراد انها دقت من حيث جلت لم يكن جائزا، وكذلك تعليقه على قول الشاعر:

فإني اذا ما الموت حل بنفسها يزال بنفسي قبل ذلك فاقبر

فجمع بين قبل وبعد وهما من المضاف، فلا قبل الا لبعد ولا بعد الا لقبل ، وهذا التعامل يظهر خروجه عن منهجه الجمالي الى منهج عقلي لا يصح في كل صورة ولا يتناسب والخيال الشعري القائم على بناء العلاقات.

كما حاول ان يفرض معاييره الخاصة في فهم المعنى على الشعراء فعاب مثلا ايقاع الممتنع في حال ما يجوز وقوعه حتى يصبح من المتناقض، كقول ابي نؤاس:

يا أمين الله عش ابدا دم على الايا والزمن

على الرغم من ان كلا الامرين واحد .

وقد افرد جزءا من معالجاته النقدية لعيوب الشعر وقسمها على وفق العناصر الاربعة فذكر من عيوب اللفظ المعاظلة، ومن عيوب القوافي التجميع والاقواء وقسم عيوب المعاني وفقا للأغراض، وكذلك ذكر عيوب تركيب العناصر الاربعة، حتى ادخل القارئ في دوامة المصطلحات، ومضى ينتقد لمجرد النقد ويعيب المعاني ويضع مصطلحات يعبر فيها عن مقاصده خرجت عن المألوف من الاشعار وتقييم جودتها مثل: ان ينسب الشيء ما ليس له، الاحلال، الحشو، التثليم وغيرها، هذا اضاع القارئ في جوقه المصطلحات غير المنتظمة في سياق ومنهج، وما يحسب له تقسيمه لصور ائتلاف المعاني التي مثل اساس نظريته النقدية للشعر.، ومع ذلك فانه حشد مصطلحات كثيرة اصبحت مادة مهمة لنقد الشعر والبلاغة على حد سواء كما يقول د. احسان عباس منشغلا بالتقعيد والتحديد حريصا على تعليم النقد فحوله الى قواعد مدروسة ذات شكل منهجي منسق.

المصادر:

- نقد الشعر/ قدامة بن جعفر- تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي
- مقالات في تاريخ النقد العربي/ د. داود سلوم- طبعة دار الرشيد
- تاريخ النقد الادبي عند العرب/ د. احسان عباس ص١٧١، طبعة دار الشروق.